حاجة الإنسان إلى الدِّين: بين محوريّة اللّه تعالى ونزعة الأنسنة

سامر توفيق عجمي[1]

ملخّص

أسَّسَت بعضُ المدارس رؤيتَها الكَونيّةَ على أساس المعرفة المادية، وأنكرَت الأبعادَ المَعنوية (الميتافيزيقية للوجود)، فأدَّى بها ذلك إلى إنكار وجود الخالق والحياة الآخرة، وبدلاً من محورية الله -تعالى- انتهت إلى محورية الذَّات البشريّة في الكون، لتقنعَ بقوانين المادة لتفسير الكون، ولسان حالهم يقول: نشكرُكَ اللَّهمَّ على نعمتكَ، ولكنّنا غيرُ مُحتاجينَ إليها. فالإنسانُ يمُكنه بالعلم التجريبيِّ أن يَستغني عن الدِّين في فهَم الكون، وفي تنظيم حياته بما يُؤمِّن له أسبابَ السَّعادة. وباختصار تقوم هذه الرؤية على التَّناقض بين الله (الدِّين)/ والإنسان، لأنَّ الرُّؤية الدِّينية -وفق تصوُّراتهم- تُؤسِّس لعقيدة تحقير الإنسان وامتهان قيمته.وفي نقض هذه الرؤية تُثبت البراهينُ العقلية أنَّ الإنسان في خطِّ علاقته مع الله -تعالَى- هو عَينُ الفَقر، ولا شَيئيّةَ له بلحاظ ذاته، وإنَّما يكتسب شَيئيَّتَه بالفَيض الإلهي المُستمرِّ، فلا يُمكنُ للـ"أنا" الإنسانيّة أن تنفكَّ عن "أنت" الإلهيّة، بتعبير آخر لا تُلغي مُحوريّةُ الله -تعالى- محوريّةَ الإنسان الظِّلِّيّة، المكتسبة من محورية الله -تعالى-، الذي جعلَ الإنسانَ خليفةً، حاملاً للأمانة، وكرَّمَه وفضَّلَه، وخَلَقَه في أحسنِ تَقويم، ومكَّنَ له في الأرض، وسخَّر له عالَمَ الطبيعة!

الكلمات المفتاحية:

نزعة الأنسنة، محورية الله، الدين، العلم التجريبي، الفلسفات المادية، الخلافة الإلهية، الكرامة الإنسانية، العقلانية، الأمان النفسي، الضوابط الاخلاقية.

1 - باحث ومحاضر في فلسفة الدِّين وعلم الكلام الجديد.

مقدّمة

الإنسانُ لا يُمكِنُه أن يعيش بلا هدف، وإذا فَقدَت الحياةُ فلسفةَ الهَدَفيّة يدخل الإنسانُ في عالَم غِياب المعنى والعبثيّة، وما يتولَّد عنهما من مشاعر القلق والخوف والكآبة والتَّشاؤم، والدِّين هو الذي يُؤمِّن للإنسان فكرةَ هدفيّة الحياة، بأنَّ الله -تعالى- خلقَ الإنسانَ لغاية مَعرفته وعبادته والاتِّصال به، هذا الاتِّصال بالله -تعالى- يُحقِّق للإنسان السَّعادةَ والخَيرَ، لأنَّ السَّعادة عبارةٌ عن تحقيق الكمال، والكمالُ هو تحصيل الهدف.

سنحاولُ في هذا البحث أن نُثبت أنّ كثيراً من الحقائق التكوينيّة، والأفعال الاختياريّة التي تتكامل بها النفس البشريّة، غائبة عن ساحة الإدراك البشريِّ المُستقلِّ، وأن الدِّين بواسطة الوحي الإلهي يمَدُّ العقلَ بها، ويمَنحُه القُدرةَ على الحُكم فيما لا يستطيع العَقلُ أن يتوصَّلَ إليه بشكل مستقلّ، كما سنثبت حاجة الإنسان إلى الدِّين في نصب معيار أخلاقيٍّ؛ إذ لولا الدِّين الحقُّ لَغابَ الميزانُ الذي يتمكَّن الإنسانُ بواسطته من قياس الخير والشَّرِّ والحَسَن والقَبيح، لأنَّ العقل وإن كان يستقلُّ بإدراك ما هو حسَنٌ ذاتًا أو قبيحٌ ذاتًا، إلّا أنّ نسبة إدراكاته لا تتجاوز عددَ أصابع اليد، فضلاً عن أنّه لا يتمكَّن من الاستقلال في إدراك ذلك عند وقوع التَّزاحُم بين القِيَم، وكذلك سنشير على أبعاد أخرى لحضور الدّينُ في حياة الإنسان مثل الشُّعور بالأمان النَّفسي في هذا العالَم، الذي يَشعرُ فيه بالوحدة والوحشة، حيثُ تُواجِهُهُ التَّحدِّياتُ.

أوّلًا: ضرورة تعريف مفهوم الدِّين بشكل واضح ومحدَّد ودقيق

أوَّلُ استفهام يُواجِهُ الباحثَ عن قضية حاجة الإنسان إلى الدِّين هو: ما هو الدِّين؟ لأنَّ الحُكم -إيجابًا أو سلبًا- على أيِّ موضوع يتوقَّف على تقديم تصوُّر صحيحٍ عنه، وكما يُقال في المنطق:

التَّصديقُ فرعُ التَّصوُّر؛ فكثيرًا ما يكون الجوابُ بالإثبات أو النَّفي نتيجة سوء فَهم طبيعة الموضوع محلِّ البحث، فإذا اتَّضح مفهومُ الموضوع فقد يتغيَّر الحُكم من النفي إلى الإثبات أو العكس، فإذا سألكَ شخصٌ: هل الإله موجودٌ في عالم الواقع أم أنّه مُجرَّدُ وَهمٍ اخترعَه الذِّهنُ الإنسانيُّ؟ فعليكَ أن تستفهم منه أوّلًا: ما هو «الإلهُ»؟ فإن قدَّم تصوُّرًا حولَ الإله بأنّه: صنمٌ، أو كوكبٌ، أو شخصٌ معينَّ كالمسيح، أو أنَّه ذاتٌ مُتجسِّدةٌ لها يدٌ أو عينٌ أو رجلٌ أو... فالجواب بالنَّفي؛ لأنَّ هذا «الإله» ليس له تحقُّقٌ في عالم الخارج، بل هو فكرة خلقَتها يدُ الخيال البشري، لدافع نفسيٍّ، أو شُبهة فكريّة جعلته يُشكِّل دليلًا فاسدًا يَغفل عمّا في مقدِّماته من مُغالطات وتناقضات. وإن قدَّم تصوَّرًا عن «الإله» بأنّه: خالقُ الكون، المُجرَّدُ عن المادة والحدوث والزمان والمكان، والمُنزَّهُ عن النَّقص وخصائص الإمكان...، فيكون الجواب بالإثبات: نعم، الله موجودٌ، وله تحقُّق في متن الأعيان. وهكذا لاحظنا أن طبيعة الحُكم على الموضوع "الإله" -إثباتًا أو نفيًا- اختلفَت باختلاف المفهوم الذي نُقدِّمه عنه والتَّصوُّر الذي رسمناه له. والفكرةُ ذاتُها تتكرَّر فيما يتعلَّق بالسؤال التالي: «هل يَحتاج الإنسان إلى الدِّين؟»، والذي يمُكِن صياغتُه بشكل قضية منطقية: الدِّين حاجة إنسانيّة، والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف التصوُّر الذي نُقدِّمه عن موضوع القضية، أي: «الدِّين». فما هو المراد بمفردة «الدِّين»؟

الدِّين مشتركٌ لَفظيٌّ، يُطلَق على اصطلاحات متعدِّدة المعنى، والغَفلة عن تحديد المعنى بشكل واضح يُورِّط الفكرَ في مغالطة المُشترك اللَّفظي، وعدمِ تكرُّر الحدِّ الأوسط في مقدِّمات الاستدلال، وينعكس ذلك على عُقم النتائج. فتارة تُطلَق مفردة الدِّين ويُراد بها كلُّ اتِّجاه أو رؤية تَنطوي على بُعدَي: العقيدة والاتِّباع[1]، أي إذا كان ثمّةَ مدرسةٌ ترسم للإنسان معالمَ الرؤية الكونيّة التي ينبغي عليه الاعتقاد بها، وتُحدِّد له كيف عليه أن يَتصرَّف في هذا الموقف أو ذاك، فتكون دينًا، وبهذا الاعتبار أطلق (برتراند رسل - Bertrand Russell) على الماركسيّة بأنَّها دِينٌ[2]. وكذلك كتب (والتر بنجامين - Walter Benjamin) عن الرأسماليّة بوصفها دينًا Capitalism as Religion [3]، وقال (بن فيشل - Ben Fishel) عن الرأسمالية بأنّها «دينُ العالم الحديث»، وعن

1 - انظر: محمد عبد الله دراز: الدِّين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص.ص. 31-32.

2 - برتراند راسل: لماذا لست مسيحيًّا؟، ص11.

3 - الرأسماليّة بوصفها دينًا Capitalism as Religion عمل غير مكتمل لـ(والتر بنيامين) (1892م – 1940م)، كتبه في عام 1921م ونُشر في عام 1985م.

المال كـ «إله يَعبده أتباع هذا الدِّين»[1]. وفي السياق نفسه، يُطلَق على البوذيّة بأنّها دين، مع أنها بلحاظ فكرة "الإله" أقرب إلى الاتّجاه الإلحادي، وأبعد عن مفهوم الدِّينِ السماويّ.

وتارة ثانية، يُطلق «الدِّين» ويُراد به أيُّ رؤية تعتقد بوجود إله أو قوة عُظمى في هذا الكون، يَنبغي أن نمارس أمامها طقوسَ الخُضوع[2]، فيشمل الدِّين بهذا المعنى الأديانَ الوثنية، التي تقوم على عبادة الأصنام والكواكب والنجوم و...

وتارةً ثالثة، تُستعمل كلمةُ «الدِّين» للدلالة على الرسالة السماويّة التي بلَّغها الأنبياء من قِبَل الله -تعالى- خالق الكون، وما تتضمَّنُه هذه الرسالة من عقائد ومفاهيم وأخلاق وتشريعات وعواطف ومشاعر وتعبُّد ... وهذا المعنى الأخير لـ"الدِّين» ليس على تلك الدرجة من الوضوح، بل فيه بحثٌ واسعٌ جدًّا، من ناحية التمييز بين الدِّين الواقعي في عالَم الثُّبوت، سواء النازل على قلوب الأنبياء (النزول)، أم الصادر عنهم (التبليغ)، وبين الدِّين المتداول بلحاظ عالم الإثبات (الوصول).

إنَّ الدِّين الواقعيَّ مضمون الحقانيّة، ومعصوم عن أي خطأ أو اشتباه ...، أمّا الدِّين في الميدان الثاني (المتداول) -الواصل مشافهة أو كتابة- فهو غير معصوم، بل يحتوي على الحقِّ والباطل؛ لأنّه يخضع لعوامل كثيرة تؤثِّر في تلوّث نقائه، سواء عن حسن نيّة كتعدُّد القراءات الاجتهاديّة للنصوص الدِّينيّة، أو عن سوء سريرة كالفهم الذاتيِّ المُتحرِّر من الضوابط العلميّة، والتحريف، والتزوير، والكذب...

والذي نعنيه بالدِّين، الذي هو موضوع الدراسة، الدِّين الواقعي الثُّبوتي، أي الدِّين الصادر من الله تعالى، والمُبلَّغ على لسان الأنبياء (عليهم السّلام) إلى الناس جميعًا. فهل يُشكِّل مثلُ هذا الدِّين حاجةً حيويّة للإنسان؟

ثانيًا: الدوافع النفسيّة لعقيدة محوريّة الإنسان

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: 17-

1 - https://www.highexistence.com/the-secret-religion-of-the-dollar-how-money-is-really-impacting-your-life/

2 - انظر: محمد عبد الله دراز: الدِّين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص.ص. 31-32.

19]، يُثير الدَّهشة أمرُ الإنسان، خلقَه اللهُ -تعالى- من تراب الأرض وصلصالها وحَمَئِها المَسنون، ثمّ من نُطفة قذرة، ويأبى إلاّ التَّكبرُّ والعلوَّ والعُجْب والاختيال والفخر ...، وقد أبدع أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب (عليه السلام) في وصفه لهذه النفسيّة البشريّة بقوله: "ما لابنِ آدَمَ والعُجْب؟! وأوَّلُهُ نُطفةٌ مَذِرةٌ، وآخِرُهُ جيفةٌ قَذِرةٌ، وهو بين ذلك يَحملُ العذرة"[1]! شعور الـ"أنا الإبليسيّة" ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 12]، لا يعيشه الإنسانُ تجاه نظائره في الخلق فقط، بل يتجاوزه إلى الإحساس بأنّه محور الكون، إلى درجة تأليه الذّات وادِّعاء الربوبيّة، كـ «الأنا الفرعونيّة»: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].

تطوَّرت جيناتُ هذا الإحساس بالتَّكبرُّ والعُجب في خلايا دماغ الإنسان الحديث والمعاصر، بفعل شعوره بأنَّه قابضٌ على أسرار الكون والطبيعة من سَكْرة الفخر بأدوات الكشف العلمي التجريبيّ، هذا الإنسان لا يُشكِّل موطنُ حياته إلاّ ذرّةً صغيرة الحجم في الامتداد الكوني[2]، فبدلَ أن تزيدَه تواضُعًا مُعطياتُ الكشف العلميِّ عن الأسرار المُدهشة في الكون وإتقان هندسته ودقّة تصميمه...، عمَّقت لديه نفسيًّا التكبرُّ والعُجْب وتضخُّم الأنا والنَّرجسيّة، وقد أصاب المؤرِّخُ الفلسفي العربي (يوسف كرم) في سياق حديثه عن تقدُّم الإنسان في العلم الآلي بقوله: "... فازداد سلطانُ الإنسان على الأرض، واتَّسعت السَّماء أمام ناظريه بفضل اختراع التلسكوب، فأحسَّ من الكبرياء ما لم يُحِسُّه من قبلُ، والتقى هذا الإحساس في نفسه بما أوحى به المذهبُ الإنسانيُّ في الأدب والدِّين، وبما نفخ فيه النضالُ السياسيُّ من إحساس قوي بالاستقلال، فشعر

---

1 - الآمدي: غرر الحكم، 4168. تجدر الإشارة إلى أنّ المنطق الدِّيني يقوم على مكافحة هذه النفسيّة المريضة المتلبّسة بالعجب والتكبّر بالتذكير بهذه الأمور الثلاثة: من حيث المبدأ والمنتهى والوسط، فالمبدأ: نطفة، والمنتهى: جيفة، وما بينهما الوسط: وعاء للغائط. عن الإمام علي (عليه السلام): "عجبت لابن آدم! أوله نطفة، وآخره جيفة، وهو قائم بينهما وعاء للغائط، ثم يتكبر!". المجلسي: بحار الأنوار، ج73، ص234. وانظر: الشريف الرضي: نهج البلاغة، الحكمة: 126.

2 - بعض الصور الفوتوغرافيّة التي التقطها المسبار الفضائي فوياجر1 في 14 شباط 1990م من مسافة تبعد حوالي 6 مليار كيلومتر عن الأرض، ظهرت الأرض بحجم أقل من البكسل كنقطة صغيرة جدًّا جدًّا مقارنة بحجم الفضاء، والتي دفعت عالم الفلك الأمريكي الملحد (كارل ساغان - Carl Sagan) إلى تأليف كتاب بالإنجليزية تحت عنوان: Pale Blue Dot ، أي نقطة زرقاء باهتة.

كأنَّه ربُّ نفسه ليس فوقَه ربّ"[1]. وكأنّ هذا النصَّ هو تفسيرٌ لقوله -تعالى-: ﴿كَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7].

هذه النَّزعة بالشعور بالاستقلال والاستغناء، ومحوريّة الذات وتفوُّقها، دفعت الإنسانَ إلى تنشيط نزعة الأنسنة، أي محوريّة الإنسان في الكون، فتشكَّلت في الغرب نظرية جديدة في الإنسان، تقتنع بما يُسمَّى بالطبيعة، وتَستغني عمّا فوق الطبيعة، كأنّها تقول لله – تعالى-: نَشكرُكَ اللَّهمَّ على نعمتك، ولكنَّنا غيرُ مُحتاجينَ إليها[2].

ثالثًا: شبهة الاستغناء بالعلم التجريبيّ عن الحاجة إلى الدِّين الإلهيّ

ثمة عوامل عدّة أدَّت دورًا مهمًّا في تغذية نزعة الأنسنة في الغرب، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، من استقرائيّة (فرنسيس بيكون - Francis Bacon) في «الأورجانون الجديد» الهادفة إلى تحرير عقل الإنسان من «الأوهام القبليّة والكهفيّة والسوقيّة والمسرحيّة»، وعقلانيّة (ديكارت - René Descartes) القائمة على محوريّة الذات البشرية "أنا أشكُّ»، «أنا أفكّر»، والاتجاه الحسيّ، تحديدًا مع (جون لوك - John Locke) و(ديفيد هيوم - David Hume)، والمنطق الوضعيّ بدءًا من (أوغست كونت - Auguste Comte) وصولاً إلى الوضعيّة المنطقيّة، والفلسفة الوجوديّة المُؤسَّسة على نظرية الماهية ومحوريّة الإرادة الإنسانيّة، وغيرها من الأفكار الفلسفيّة المتراكمة...

ومن باب النموذج، ادَّعى (أوجست كونت) أنّه مع قدرة الذهن البشريِّ على إدراك الظواهر الطبيعية المحسوسة، والقوانين الحاكمة على هذه الظواهر بواسطة المعرفة العلميّة، ينبغي على الإنسان أن يتخلَّى عن الدِّين والتفكير اللاهوتي وعن الفلسفة والبحث الميتافيزيقي؛ لأنّ «الدِّين هو المرحلة البدائيّة من تفكير البشر»، حيث إنَّ الإنسانَ -بزعمه- نتيجة الجهل بأصل الظواهر الطبيعية، والقوانين والعلاقات بينها، أسندها إلى قوى ما ورائية غير منظورة حسيًّا، أمّا مع «المعرفة العلميّة» فلم يَعُد الإنسانُ بحاجة إلى ما وراء الطبيعة «الله»، فالله -في زعمه- هو المعادلة الأسطوريّة التي نُغلِّف بها جهلَنا وعجزَنا عن فهم الطبيعة، أمّا إذا فهمناها في ضوء المنطق

1 - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص7.

2 - م.س.، ص6.

العلمي، القائم على أساس الملاحظة الحسيّة والاستقراء، فإنَّ ذلك يجعل الإله يتراجع إلى الوراء، بعد أن يكون قد استنفد غرضَ الإيمان به، أو -كما نقل (فلاماريون - Flammarion) عن (كونت)- يُؤدِّي العِلمُ إلى عزل أبي الطبيعة عن عمله، بعد أن يكون قد قدَّر له خدماته المُؤقَّتة[1]!! وحسب تعبير (ليتريه - Littré): «ننظر إلى العالم برؤية محايثة، أي نُفسِّر الكونَ على أنّه مجموع مركَّب، توجد عِلَلُه بشكل قوانين، بخلاف التَّفسير الدِّيني القائم على أساس أنَّ الكونَ له عِلَلٌ مفارِقة من خارجه.»[2].

هكذا بدأ توهُّم إتاحة العلم الاستغناء عن الدِّين كعقيدة في فهم الكون. وكذلك إتاحة بناء النظام الاجتماعيّ الذي يُؤمِّن سعادةَ الإنسان، أو حسب تعبير (أرنست رينان - Ernest Renan): «العلمُ هو الذي يُقدِّم إلى الإنسان الوسيلةَ الوحيدة التي يَستطيع بها أن يُصلِحَ أحوالَه، والشيء الذي لا يستطيع أن تعيش بدونه، أي الرمز والناموس.»[3] .. وعليه: «فيجب أن يحلَّ العلمُ محلَّ الدِّين، لأنّه مجرَّدُ خرافة، أو بتعبير ألطف هو فرض مُفيد يَرفَعُ النَّفس.»[4].

وفي تحليل (برتراند رسل) -الفيلسوف اللاأدري- للدين يرى أنّه ناتجُ عاملَيِ الجهل وفتنة الخَوف، فخوفُ الإنسان من الظَّواهر الطَّبيعيّة، والشُّعور بالعجز عن مواجهتها، ألجأ عقلَه لاختراع «فكرة الإله» كقوة عُظمى تتحكَّم بالعالم، وتَمتلكُ من الصِّفات ما يَجعلُها قادرةً على تخليص الإنسان من خَوفِه ومعاناته وحمايته من المخاطر والتهديدات، فيشعر بالأمان النَّفسي والسَّكينة، يقول (رسل): «يقوم الدِّين، برأيي، بصورةٍ أساسيّةٍ وأوليّةٍ على الخوف، إنَّه جزئيًّا الخوفُ من المجهول ... إنَّ الخوفَ هو أساس الأمر كلِّه – الخوف من كلِّ ما هو غامض، الخوف من الهزيمة، والخوف من الموت، إنَّ الخوف هو أبو القَسوة وأمُّها، لذا، لا عجب إذا ما كان الدِّين والقسوة يَسيران يدًا بيَد.»[5]، ثمَّ يُصرِّح (رسل) أنَّ الحلَّ يَكمُن في العلم لا في الدِّين

1 - نقلاً عن: مرتضى مطهري: الدوافع نحو المادية، ص32.

2 - ليتريه: أقوال في الفلسفة الوضعية، ص53.

3 - Renan: L'avenir de la Science, p31.

4 - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص370.

5 -برتراند رسل: لماذا لست مسيحيًّا؟، ص26. وفي السياق نفسه، يقول (ستيفن هوكنغ): «إنّ جهل البشر في القِدَم بطرق الطبيعة، أدّى بهم إلى اختراع آلهة تُعزى إليها كلُّ مناحي الحياة البشريّة».

والإيمان بالله، قائلاً: «العلم يَستطيع أن يُساعِدَنا في تجاوُزِ هذا الخوف الذي يُصيبُنا بالجبن، والذي عانى منه الجنس البشري لأجيال عديدة.»[1].

هكذا تمكَّن هذا المنطقُ تحت ذريعة المعرفة العلميّة من إيجاد بيئة ثقافية وحالة ذهنية حاضنة للتناقض بين المنطق العلمي والإيمان بالله، بنحو يَمتنع اجتماعُهما، لأنَّه يَلزم من ذلك التناقُض، بمعنى أنَّه إمّا أن يكون الإنسان مناصرًا للمَنطِق العِلميِّ وعالِما[2]، وإمّا أن يكون داعماً للإيمان بالله، -ويُذكِّرني هذا بقول (أبي العلاء المعرّي): اثنان أهل الأرض: ذو عقــلٍ بلا ديــن، وآخرُ ديِّنٌ لا عقل له-؛ لأنّ العلم -على حدِّ تعبير المُلحد (ريتشارد دوكنز)- يقود إلى طرد الإله، حيث يقول: «لقد طَرد (دارون - Darwin) الإلهَ من البيولوجيا، ولكنَّ الوضع في الفيزياء بَقِيَ أقلَّ وضوحًا، ويُسدِّد (هوكينج - Hawking) الضربة القاضية الآن.»[3]. هذه النَّزعة الاستعلائيّة الوَقِحةُ في إعلان "طرد الإله" أو "موت الإله" وفق تعبير (فريدريك نيتشه - Friedrich Nietzsche): "الإله مات" أو "الله قد مات"، وبالألمانيّة (Gott ist tot) تدلُّ على مدى تمكُّن نفسيّة العُجْب والتكبُّر من قلب هؤلاء -أعاذَنا الله منها-، ووفي السياق عينه، يُسجِّلُ (ريتشارد دوكنز - Richard Dawkins) استغرابَه من وجود عالِم مُؤمنٍ بفكرة الإله، لأنَّ العلماء الحقيقيِّين لا يُمكِنُ أن يكونوا إلاّ مُلحِدين[4]؟!!

ولم يقتصر الموقفُ السلبيُّ من حاجة الإنسان إلى الدِّين على الاتّجاه الإلحادي في الغرب، بل تعدّاه إلى الاتجاه الربوبي، فالربوبيّة (Deism) رغم اعتقادها بوجود مصمِّم ذكيٍّ لهذه الهندسة

---

1 - برتراند رسل: لماذا لست مسيحيًّا؟، ص35.

2 - scientist

3 - نقلاً عن: نور الدين أبو لحية: الكون بين التوحيد والإلحاد، ص82.

4 - انظر: سـامر عجمي: الإلحاد المعاصر على طاولة التشريح، ص.ص. 55 وما بعدها، حيث ناقشـنا هذه الأطروحة التي تفك الارتباط بين المنطق العلمي والإيمان بالله -تعالى-، وسـلَّطنا الضوء على أطروحة (السيد محمد باقر الصدر) في إثبات التلازم بين المنطق العلمي القائم على أساس الاستقراء في ضوء نظرية الاحتمال الريـاضي وبين الإيمان بالله -تعالى-، بمعنى أنّ الأسـس المنطقية التي يقوم عليها الاسـتدلال على وجود الله -تعالى- هي عينها الأسـس المنطقية المستخدمة في الدراسـات العلميّة البيولوجيّة وغيرها، بحيث يؤدِّي إنكار الإيمان بالله -تعالى- إلى إنكارها في حقل البيولوجيا لا العكس.

الكونيّة المُثيرة للدهشة، إلاّ أنَّ أتباعَها يكتفون بالعقل والعلم، ويَعتبرون أنَّ المُصمِّم الذكيَّ أو المهندسَ العظيم للكون خلقَه ضمن قوانين فيزيائية وأحيائيّة خاصّة، يتحرَّك في ضوئها بمعزل عن التدخُّل المباشر من المهندس العظيم، فـ"إله الربوبيِّين إلهٌ غائب"[1] على حدِّ زعم (توماس كارليل - Thomas Carlyle)، انفكَّت الرّابطةُ بينه وبين الكون بعد أن أبدَع القوانين، فلا يتدخَّل في إدارته، وليس الكون موضع نظره، بل هو الآن قد تفرَّغ لقضايا أخرى لا نعرفُها، وليست موضعَ اهتمامنا أصلاً، وبالتالي فمُصمِّمُ الكون لم يتَّصل بالبشر بواسطة الوحي، ولم يُرسِلْ لهم الأنبياء ليأمرهم بشيء أو ينهاهم عن شيء، فالأديان من اختراع الخيال البشريّ، والإنسان يتمكَّن بعقله المستقلِّ والعلم التجريبيِّ أن يَستغني عن الأديان.

رابعًا: الحاجة إلى الدِّين بين الصدق والنَّفع

بعضُ المُلحِدينَ لا يُنكرونَ أنَّ الدِّين نافعٌ لحياة البشر -كما تقدَّم في نصِّ (أرنست رينان)- بل بعضُ المُلحِدينَ باطنًا هم مُتديِّنون ظاهرًا لهذا الدَّافع؛ لأنّ الدِّين يمَدُّهم بالنَّفع في حياتهم العمليّة، فـ(برتراند رسل) رغمَ إلحاده يَعترِفُ أنَّ الدِّين قد يكون نافعًا للإنسان، ولكنَّ معيار بحث فيلسوف العلم عن الدِّين ليس النَّفعَ بل هو الصِّدق، فإنَّ الدِّين غيرُ صادق، وبالتالي الانتماء إلى الدِّين يعني أنَّك تَنتمي إلى عالم الخرافات والأساطير والأوهام، والعلم يُريد أن يُحرِّر الإنسانَ من أوهامه ليرى الأشياء بواقعيّة، ولذا يُصرِّح (رسل) بأنّه ضدُّ النَّزعة التي تتعامَل مع الدِّين من منطلق نَفعيٍّ. ويُشاركه (ريتشارد دوكنز) في هذه القراءة؛ فهو لا يُنكِر أن يكون الدِّين نافعًا، لكنَّ المعيار هو الصدق وليس النَّفع، ولذلك يَعيب (دوكنز) على بعض أصدقائه المُلحِدين انتماءَهم إلى مجتمعاتهم الدِّينيّة تحت ذريعة النَّفع، ويُعطي بعضَ الشواهد على الفكرة، مثل عالم الفضاء المعاصر ورئيس الجمعية الملكية الحالي، (مارتن ريس - Martin Rees)، الذي يَنقل (دوكنز) بأنَّه قال له: «إنيِّ أذهب إلى الكنيسة كإنجيلي كافر»[2].

شاهدٌ آخر: أنَّه في معرض مناقشات (دوكنز) التلفزيونية تَحدَّى صديقَه طبيب التوليد (روبرت

1 - انظر: هيثم طلعت: العودة إلى الإيمان، ص43.

2 -ريتشارد دوكنز: وهم الإله، ص10.

وينستون - Robert Winston)، أحد أركان الجالية اليهودية في إنكلترا، بأن يهوديّتَه هي جزء من شخصيته، وأنه لا يُؤمِنُ بأيِّ شيء ما وراء الطبيعة. وكان (وينستون) قابَ قوسَينِ أو أدنى من الاعتراف بذلك، ولكن تغلَّب عليه خجلُه في النِّهاية، لكن عندما ضغطْتُ عليه، قال بأنه وجدَ أن الالتزام باليهودية ساعده على تنظيم حياته وجعلِها جيِّدةً بشكل أو بأخر. هنا يُعلِّق (دوكنز) قائلاً: «ربمَّا كان ذلك صحيحًا. ولكن، بالطبع، ليس لذلك أي صلة بصحة مقولة الماورائيات. هناك العديدون من اللامعين المُلحدين، يُلقِّبون أنفسَهم باليهود، ويُؤدُّون الطُّقوس اليهودية، ربمَّا بسبب الولاء لتقاليد قديمة»[1].

خامسًا: مغالطة التناقض المصطنع بين محوريّة الله ومحوريّة الإنسان

إنَّ فلسفة المدارس الحسيّة والماديّة والإلحاديّة والشُّكوكيّة... تقوم على التناقض بين الله (الدِّين) والإنسان، وحجّتُهم أنه إذا افترضنا أنّ الله -تعالى- في الأديان هو قطب رَحَى الوجود، فهذا يعني أنّ الإنسان هامشيٌّ لا قيمةَ له، فالرُّؤية الدِّينية -بزعمهم- تُؤسِّس لعقيدة تحقير الإنسان.

وفي نقض هذا الاتجاه نسلِّط الضَّوء على أمور عدّة:

1 - أن العلاقة بين الله -تعالى- والإنسان ليست أمرًا وضعيًّا اعتباريًّا

أي أن العلاقة لا تقوم على أساس مقولات الأحكام المعياريّة الخاضعة لتقويم الإنسان، بل هو أمر واقعيٌّ تكوينيّ، وظيفة العقل البشري أن يكشف عنه لا أن يُنشئه؛ ففرق بين كاشفية العقل عن واقع قائم وبين إنشاء العقل لواقعيّة ليست قائمة، ولكنه بهدف تأمين حاجاته يُعطي حدًّا من الواقعيّة لأمر آخر يَفترضه ذهنُه ليرُتِّب عليه ثمرة في حياته العمليّة على أساس الاعتبار العقليّ كالمِلكيّة الاعتباريّة. إنَّ البحث عن العلاقة بين الله والإنسان بحثٌ واقعيٌّ لا اعتباريٌّ، قائم على موازين المصلحة والمنفعة التي يفرضها العقل العمليُّ أحيانًا.

العقل النظري يتحرَّك في ضوء منطق الواقع لا الاعتبار، فيَدرس ما هو كائن في الوجود كما هو على أساس البرهان، وبالبراهين الوجوديّة يكشف عن أنَّ الإنسان في خطِّ علاقته مع الله تعالى

1 - ريتشارد دوكنز: وهم الإله، ص10.

هو عينُ الفقر، ويُؤكِّد الوحيُ هذا المَنطق ويُرشِد إليه: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: 38]، بمعنى أنَّ الإنسان مُتمحِّضٌ في الإمكان الفقريِّ ولا شَيئيّةَ له بلحاظ ذاته، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، وإنَّما يكتسب شيئيّتَه ووجودَه وواقعيّتَه بالإيجاد والجعل والفيض الإلهي، هذا الفيض له طبيعة سيّالة مُستمرّة لا تنقطع بمجرد إيجاد الإنسان بحيث يستغني وجودُه بقوانين البيولوجيا والمادة، بل هو فيض مستمرٌّ، بمعنى أنّ الإنسان والقوانين الحاكمة على حياته يحتاجان إلى الفيض الإلهي المستمرِّ في كل آنٍ من آونة الدَّوام الوجودي، بحيث إذا انقطع هذا الفيض طرفةَ عَينٍ لا يكون للإنسان واقعيّة، ولا للقوانين تحقُّقًا، فواقعيّة وجود الإنسان مرتبطة بأصل الفيض الإلهي حدوثًا واستمراره ودوامه بقاءً، فوجود الإنسان يقوم على أساس رابطة الفقر إلى الله، فالإنسان فقير، ضعيف، محتاج، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً...، لا يُمكِن للـ"أنا" الإنسانيّة أن تنفكَّ عن "أنت" الإلهيّة، وما أجمل مناجاة أمير المؤمنين عليّ (عليه السّلام)، التي تنطلق من "أنت" التي لا تتناقض مع إثبات: «أنا»، لكن على أن تكون «أنا الإنسانيّة» في ظل «أنت الإلهيّة».

«مَولايَ يا مَولايَ أنتَ الخالِقُ وأنا المخلُوقُ، وهَل يَرحَمُ المَخلُوقَ إلاَّ الخالِقُ؟!...

مَولايَ يا مَولايَ أنتَ القَوِيُّ وأنا الضَّعيفُ، وهَل يَرحَمُ الضَّعيفَ إلاَّ القَوِيُّ؟!

مَولايَ يا مَولايَ أنتَ الغَنِيُّ وأنا الفَقيرُ، وهَل يَرحَمُ الفَقيرَ إلاَّ الغَنِيُّ؟!...».

وكذلك دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) في التذلُّل:

«مَولايَ مَولايَ، أنتَ الخالِقُ، وأنا المَخلُوقُ، وهَل يَرحَمُ المَخلُوقَ إلاَّ الخالِقُ؟!...

مَولايَ مَولايَ، أنتَ القَوِيُّ وأنا الضَّعيفُ، وهَل يَرحَمُ الضَّعيفَ إلاَّ القَوِيُّ؟!

مَولايَ مَولايَ، أنتَ الغَنِيُّ وأنا الفَقيرُ، وهَل يَرحَمُ الفَقيرَ إلاَّ الغَنِيُّ؟!...».

2 - أنَّ محوريّة الله -تعالى- لا تُلغي محوريّة الإنسان

وهذه معادلة دقيقة يُمكن معالجتها في ضوء قانون الإسناد الطولي في الوجود: أي أن محوريّة الله -تعالى- في الخالقيّة لا تَنفي أنّ الإنسان، مثلاً، خالق ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، قال تعالى على لسان عيسى (عليه السلام): ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل

عمران: 49]، فقد أسند عيسى ﷺ الخلقَ «أخلُقُ»، والنَّفخَ «أنفخُ»، والإبراءَ «أُبرِئُ»، والإحياء "أُحيي" إلى نفسه، لكنَّ قيام عيسى بهذه الأفعال أو صدروها عنه لا يُلغي أنَّ الله تعالى هو الخالق، والمُحيي...، وكذلك محوريّة الله في الرازقيّة لا تَنفي أنَّ الإنسان، مثلاً، رازق ﴿**...وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ [الجمعة: 11]... نعم، محوريّة الإنسان ليست ذاتيّة في عرض محوريّة الله على نحو الاستقلال، بل هي محوريّة مُكتسَبة تابعة لمحورية الله.

3 - أنّ الله تعالى تحدَّث عن الإنسان في القرآن الكريم بصفات تدلُّ على محوريّته

من هذه الآيات مثلاً:

أ. جعله خليفةً له، قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

ب. حمَّله الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

ج. كرَّمَه وفضَّلَه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

د. خلقَه في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

هـ. استعمرَه في الأرض: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

و. سخَّرَ له ما في السَّماوات وما في الأرض: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 12-13].

4 - لا تلازم بين محورية الله وامتهان الإنسان

ممّا تقدَّم يتبيَّن أنَّ محورية الله -تعالى- لا يُلازمها النَّظرُ إلى الإنسان باحتقار، فالإيمان بمحورية الله -تعالى- لا يَعني أنَّ الإنسان لا شأنيّة له، إنَّ وُرود بعض المصطلحات في التراث الدِّيني مثل أنَّ الإنسان بائس، فقير، حقير، مسكين... لا يَعني التَّحقير والإهانة، بل هو من باب التحقيق، فهؤلاء خلطوا بين التحقير والتَّحقيق[1]؛ فالتحقير هو حكم معياري سَلبي، أما التحقيق

1 - انظر: جوادي آملي: إمكان معرفة الإنسان وأهميّتها، ص.ص.37-38.

فهو وصف واقعيٌّ إيجابيٌّ، فمثلاً عندما يُطلِقُ القرآنُ الكريم على بعض البشر بأنَّهم حيوانات ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ [الأعراف: 179]، فهذا ليس من باب الإهانة أو التَّحقير؛ لأنَّ القرآن ليس كتاب تحقير وشَتم وسَبٍّ وإساءة مَحضة، بل هو كتابُ تَحقيق، أي إنَّه يكشف بهذه الآية عن حقيقة قائمة في الواقع أنَّ الإنسانَ الذي يُعطِّل قدراته الإدراكيّة وأجهزته الحسيّة والعقليّة عن التوصُّل إلى معرفة الله والإيمان به هو في واقعه الوجودي يَدخل في حدِّ الـ «حيوان» حقيقة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1] بفعل التناسخ المَلكوتيّ[2]، ولذلك يُحشَر يومَ القيامة على هذه الشاكلة والصورة، كما ورد عن النبيِّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) أنَّ بعضَ الناس يُحشَرون على صورة قردة، وبعضهم على صورة خنازير، وبعضهم على صورة كلب أو نملة أو ... كذلك شأنُ هذه المفردات عندما تُطلق على الإنسان، كما -على سبيل المثال- في تعقيب صلاة العصر: «عَبْد، ذَليل، خاضِع، فَقير، بائس، مِسْكين، مُسْتَكين، مُسْتَجير، لا يَمْلكُ لنَفْسه نَفْعًا ولا ضَرًّا وَلا مَوْتًا وَلا حَياةً وَلا نُشُورًا»، أو في دعاء (كميل بن زياد): «... وأنا عَبدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الحَقيرُ المسكينُ المُستَكينُ ...»، أو في التسبيح بعد صلاة (جعفر الطيّار): «... هذا مَقامُ المِسكين المُستكين، هذا مَقامُ الفَقيرِ البائسِ الحَقيرِ المُحتاج ...»، هي من باب التَّحقيق لا التحقير، أي تَصِفُ ما عليه حقيقةُ واقع الإنسان في ذاته في خطِّ علاقته مع الله -تعالى- بالنظر إلى أنّه -عزّ وجلّ- هو الرحيم الكريم الخالق الغني العزيز القوي المالك ... وبعبارة أخرى: إنّ الله تعالى

---

1 - ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

2 - التناسخ على نوعين: التناسخ الملكي والتناسخ الملكوتي، والأول هو عبارة عن انتقال النفس الإنسانية من بدن مادي إلى بدن مادي آخر، أي أنّ النفس عندما تفارق هذا البدن الذي لها علاقة معه في عالم الدنيا لا تعود إليه، بل تتعلّق ببدن آخر مغاير لهذا البدن ومنفصل عنه وليس له أي علاقة بشخصه وصاحبه.

أمّا التناسخ الملكوتي فهو عبارة عن تمثُّل النفس الإنسانية بصورة مناسبة لها من حيث النيّات والملكات وطبيعة الأعمال الصادرة عنها، أي أنّ النفس في ضوء نظرية تجسم الأعمال تصير ماهيتها مناسبة ومشاكلة لما يصدر عنها، فتُحشر يوم القيامة على تلك الصورة والهيئة والماهية، كصورة خنزير أو قرد أو كلب أو سبع... كما ورد في بعض الأحاديث أنّه يُحشَر الناس على نياتهم يوم القيامة، أو يُحشَر بعض الناس على صور تَحسن عندها القردة والخنازير... انظر: المجلسي: بحار الأنوار، ج67، ص209. وصدر المتألهين الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج9، ص.ص. 4-5...

هو الطرف الفاعليُّ، فيقتضي أن يكون الإنسان في المقابل هو الطرف المفعوليُّ، فإذا كان هناك خالق فالإنسان مخلوق، وليس له من ذاته استقلالٌ في الخلق ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الطور: 35]، وإذا كان هناك غنيٌّ بالذات فإنَّ الإنسان هو الفقير بالذات ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: 15] ... إلخ، وهذا ما أكَّدَت عليه أدعية أهل البيت (عليهم السلام)، التي تَقدَّم بعضُها، مثال آخر الدعاء الذي يُدعى به بعد صلاة زيارة الإمام محمد الجواد (عليه السلام): "اللَّهُمَّ أنتَ الرَّبُّ وأنا المَربُوبُ، وأنتَ الخالقُ وأنا المَخلُوقُ، وأنتَ المالكُ وأنا المَملُوكُ، وأنتَ المُعطِي وأنا السَّائِلُ، وأنتَ الرَّازِقُ وأنا المَرزُوقُ، وأنتَ القادِرُ وأنا العاجِزُ، وأنتَ القَوِيُّ وأنا الضَّعِيفُ...".

سادسًا: حاجة الإنسان إلى الدِّين في هدفيّة الحياة

إنَّ الإنسان بفطرته كائنٌ هادف، أفعاله الاختياريّة مُعلَّلة بالأغراض، وليست عبثيّةً واعتباطيّة[1]، بل تَصدر عنه ضمنَ هندسة نفسيّة خاصّة، تَقوم على المعرفة، أي تصوُّر الهدف والتصديق به، ثمّ الشَّوق المُنبثِق منهما إلى الفعل والرَّغبة فيه، ثم الإرادة والتَّصميم والعزم، ثم الحركة نحو الفعل والقيام به في الخارج من أجل تحقيق الغاية المتصوَّرة، بحيث تتحوَّل من عالَم الذِّهن إلى عالم الواقع، فيحصل على النتيجة المقصودة له[2]، والهدف هو ما يقصد الفاعلُ المختار الفعلَ لأجل الوصول إليه[3]، أي هو ما يقع جوابًا عن السؤال: لِمَ تَفعل كذا؟ وبعبارة أخرى: الهدف هو النتيجة التي يُريد الفاعل تحقيقَها في المستقبل بواسطة جهد ما يَبذلُه ويَقومُ به[4]، والاعتقادُ بوجود هدف هو الذي يمَنح الإنسان الدافعيّة نحو الحركة في الحياة، وفقدانُ الهَدف في الحياة يَعني العَبَثيّةَ وغيابَ المعنى، ممّا يَجعل الإنسان مُتحيرًّا، تائهًا، مضطربًا، قلقًا، متشائمًا... لكن

1 - معنى العبثية: خلوُّ الفعل من الغاية ووقوعُه لا لغرض.

2 - العلامة الحلي: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص198.

3 - الشريف المرتضى: رسائل الشريف المرتضى، ج2، ص278. & ابن سينا: الإشارات والتنبيهات (مع شرح محمد بن محمد الطوسي، ومحمد بن محمد الرازي)، ج3، ص149 & م.ن، ج1، ص8، حاشية الرازي رقم: 1. & مصباح اليزدي: تعليقة على نهاية الحكمة، ج2، ص59.

4 - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص359. & الجوهري: الصحاح، ج3، ص1093.

ليس أيُّ هدف هو الذي يمَنح الحياةَ المعنى، وإنَّما الهدف الواقعيُّ، إذ إنَّ الأهداف على قسمين:

1 - الأول: الهدف الواقعي: وهو الهدف الموضوعيُّ الذي وُجد الإنسانُ لأجله بحسب الطبيعة والتَّكوين، وهو لا يَخضع للاعتبارات الشخصيّة والرغبات الذاتيّة للإنسان ومزاجه.

2 - والثاني: الهدف الوَهميُّ: وهو الهدف الذاتيُّ الخاضع للاعتبارات الشخصيّة والرغبات الذاتيّة، وليس له واقع وراء الاعتبار الذِّهني للإنسان ووَهمه، وبعبارة أخرى هو الهدف الذي يتخيَّلُه الإنسان ويجعله هدفًا ليُعطي حياتَه معنًى مُعيَّنًا هروبًا من الفلسفة العبثيّة والاعتباطية[1].

وليس ثمّةَ رؤية للحياة تَقوم على أساس الهدف الواقعيِّ، بحسب التكوين الوجوديّ للإنسان، إلاّ الرؤية الكونيّة الدِّينيّة الحَقّة[2]، لأنَّ هذه العقيدة تَنبثق من الإيمان بوجود إله حكيم خلقَ الكونَ والإنسانَ لعلّة غائيّة مَوضوعيّة، ولم يُوجَد صُدفةً واتِّفاقًا، فالدِّين هو الذي يَمنَحُ الإنسانَ الشُّعورَ بهدفيّة الحياة. ولذا، نُلاحِظ أنَّ المُلحدينَ يُصرِّحون بأنَّ الحياة تَفتقِدُ فلسفةَ الهدف بناءً للمنطق الماديّ، ونكتفي بنموذجين من التطوُّريِّين الدارونيِّين:

■ يقول (جاكوس مونود - Jacques Monod): «في نهاية المطاف، سوف يَعلَمُ الإنسانُ أنه وحيدٌ في هذا العالم الذي وُجِد وظَهَرَ [وتكامَلَ وتطوَّرَ] صدفةً، ولن تكون له غايةٌ، ولا تكليف عليه.»[3].

■ ويقول (بروفاين - Provine): «إنَّ العالَمَ لا يَهتمُّ بنا، ولا يَكمُنُ في حياة الإنسان مفهومٌ وهدف نهائيٌّ.»[4].

أمّا القرآنُ الكريم فقد أكَّدَ على هذه الفكرة المحوريّة في آيات كثيرة، وهي على قسمين:

الآيات الأولى: أشارت إلى الهَدفيّة بالدلالة المطابقيّة باستعمال وصف «بالحَقِّ»، والمقصود

---

1 - يُراجَع: محمد حسين الطباطبائي: نهاية الحكمة، مرحلة العلة والمعلول، الفصل 11.

2 - انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص63.

3 - Jacques Monod: Chance and Necessity an Essay on the Natural Philosophy of Modern Biology, p.180.

4 - Provine: Scientists face it! Science and Religion are Incompatible, p.10.

بالحقّ هو الذي يكون لفاعله فيه غايةٌ مَطلوبة[1] ثابتة باقية، مقابل الباطل بمعنى ما لا غاية له[2]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: 85]، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: 8].

والآيات الثانية: أشارت إلى الهدفية بأسلوب الدلالة الالتزامية بالضِّدِّ، أي نفَت أن يكون هذا الكون قد خُلق عبثًا وسدًى ولهوًا ولعبًا، وبالملازمة له غرضٌ وهدف وغاية. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: 15-16]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 16]، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: 191]، وإذا تأمَّلنا في قوله تعالى: (فتَعالى اللهُ) و(سُبحانَكَ)، نستنبط تنزيه الله تعالى الحكيم عن العبثيّة واللاهدفيّة.

سابعًا: السعادة الإنسانيّة مرتبطة بهدفيّة الحياة

والنقطة المُهمّةُ التي ترتبط جوهريًّا بفكرة هدفيّة الحياة هي مفاهيم: الكمال، والخير، والسعادة، حيث إنَّ الإنسانَ باحث عن السعادة في الحياة، فأيُّهما يُمكنُ أن يُحقِّق سعادةَ الإنسان: فلسفةُ العِلَّة الغائيّة للكون والهَدف الموضوعي؟ أم الهدفُ الذاتيُّ التخيُّليّ؟ وهذا ما يستلزم تحليل هذه المفاهيم الثلاثة[3].

الكمال بالتحليل العقلي والفلسفي -بل وفي الاستعمال اللغوي أيضًا- هو عبارة عن وصول الإنسان إلى الهدف والغاية[4]. قال (الراغب الأصفهاني): «كَمالُ الشَّيْءِ حُصولُ ما فِيه الغَرَضُ

1 - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج12، ص41.

2 - انظر: م.ن.، ج17، ص196.

3 - انظر للتفصيل: سامر عجمي: التربية بنظرة فلسفية، ص.ص. 227، 251، 277.

4 - انظر: الفارابي: رسالة السعادة، ص.ص. 47 و49. & ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، ج3، ص340. & الشيرازي (صدر المتألهين): المبدأ والمعاد، ص338. & ابن الفناري: مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، ص225. & النراقي: جامع السعادات، ج1، ص57. & والمصادر اللغوية: الفراهيدي: كتاب العين، ج8، ص111.

منْه، فإذا قيل: كَمُلَ فَمَعْناهُ حَصَلَ ما هُوَ الغَرَض منْه.»[1]. وبالتالي هناك رابطة توليديّة بين الكمال والهدف، أي أنّ تحقيق الهدف يُولِّد الكمالَ الإنسانيَّ. وهناك تناسب بين طبيعة الهدف والكمال المنبثق عنه، فإذا كان الهدف واقعيًّا بحسب التكوين يكون الوصول إليه مُحقِّقًا للكمال الواقعي الطبيعي، وإلّا يكون ما حصَّله الإنسانُ هو الكمال الوهميُّ الخيالي، والذي لا يُلبِّي حاجة الإنسان الواقعيّة، فإنَّ الحاجات الواقعية لا تُشبَع إلا بموضوعاتها الواقعيّة.

أمّا «الخير» فهو الكمالُ الخاصُّ الذي يَقصِدُه القاصِدُ بحسب استعداده الأولي الفطري[2]. ولذا يكون معنى «الشرّ» الذي يُقابله: «نقصانَ كلِّ شيء عن كماله، وفقدانه ما من شأنه أن يكون له، حسب استعداده الفطري الأولي»[3].

أمّا «السعادة»، فيقول (محمد مهدي النراقي) في تعريفها: «هي وصولُ كلِّ شخص بحركته الإرادية النَّفسانية إلى كماله الكامن في جِبلَّته.»[4].

وبهذا يتبيَّن أنَّ خيرَ الإنسان وسعادته يتحقَّقان بالوصول إلى كماله الخاصِّ، وكمالُه الخاصُّ يتحصَّلُ بتحقيق الهدف الوجودي الذي خُلِق من أجله، ولا معنى للهدف الوجودي إلّا في ضوء المنطق الدِّينيّ، والذي هو معرفة الله -تعالى- وعبادته، فالله -تعالى- هو غاية الغايات والهدف الأقصى[5]؛ يقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56].

يقول (السيد الخوئي): «العبادةُ مُوجِبةٌ لاستكمال النُّفوس، فالغاية لكلٍّ من التَّكوين والتَّشريع هي استكمال النَّفس بالعبادة.»[6].

& ابـن فارس: معجم مقاييـس اللغة، ج5، ص139. & الجوهري: الصحـاح، ج5، ص1813. & الزبيدي: تاج العروس، ج16، ص76.

1 - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص441.

2 - ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، ج3، ص340.

3 - ابن سينا: الشفاء، الإلهيات، الفصل السادس، فصل في العناية....، ج2، ص419.

4 - النراقي: جامع السعادات، ج1، ص57.

5 - محمد حسين الطباطبائي: نهاية الحكمة، ص.ص. 236-237.

6 - علي الغروي: التنقيح في شرح العروة الوثقى، كتاب الطهارة، ج4، ص471.

ويقول (السيد الطباطبائي) في هذا السياق: «العبودية هي الغرضُ الإلهيُّ من خلق الإنسان.»[1].

والخلاصة أنَّ الإنسان يحتاج إلى الدِّين ليكون لحياته هدفًا واقعيًّا يتحرّك في ضوئه لتحقيق كماله وسعادته وخيره، ويتخلَّص من المشاعر السَّلبيّة كالحَيرة والتِّيه والتَّشاؤم والعبثيّة و...

ثامنًا: الحاجة إلى الدِّين معرفيًّا

ثمّة مصادر معرفيّة متعدِّدة في حياة الإنسان تُمكِّنه من الكشف عن الحقائق الكونيّة والطبيعيّة على مستوى العلوم النظريّة، كالميتافيزقا والرياضيّات والفلك والفيزياء والبيولوجيا...، وتُمكِّنه من التَّمييز بين الحَسَن والقبيح من الأفعال الاختيارية التي تنبغي أو لا تنبغي في حقل التربية والأخلاق والسياسة... والمعهود عند الإنسان من هذه الأدوات والمصادر: الحواسُّ والعقل، -أمّا الاستقراء والتجربة والاستنباط فهي من ثمرات الحواسِّ والعقل- ويُضيف العُرَفاءُ والمتُصوِّفة إلى هذين المصدرين: القلب، ليس كمصدر من مصادر الإحساس والشعور والعواطف، بل كمصدر من مصادر المعرفة التي تتجاوز نطاق الظاهر إلى الباطن بالكشف والشهود.

ولكن، دائمًا ما كان إلى جانب هذه المصادر المعرفيّة مصدرٌ من نوع آخر، وهو الوحي الواصل عن طريق الأنبياء (عليهم السّلام)، لأنّ الإنسان لو اعتمد على مصادره المعرفيّة الذاتيّة، دون الاستعانة بهذا المصدر الخارجيّ، فإنّه سيقع في إشكاليَّتَين رئيسيّتَين:

■ **الأولى:** أنَّ كثيراً من الحقائق التكوينيّة، ومعرفة أيِّ الأفعال الاختياريّة التي تتكامل بها النَّفسُ، ستكون غائبةً عنه، ولن يتمكَّن أن يُدركها بشكل تامٍّ، فمهما أجالَ الإنسانُ بحواسِّه في الكون أو ضغط على عقله متأمِّلاً، يَنقلِبْ إليه البصرُ خاسئًا وهو حَسير.

■ **والثانية:** أنّ القضايا التي يُدركها العقلُ أو تَنالُها الحواسُّ بشكل مستقل مَسْرحٌ للخطأ، فيأتي المصدر الخارجيُّ لِيرُشِدَ العقل في الجانب الإيجابيِّ، ويُنبِّهُه إلى مواطن الخلل والعثور في الجانب السلبيّ. وهذا الإرشاد يكون من ناحيتين: الأولى من ناحية المُدرِك ذاته أي العقل كمصدر من مصادر المعرفة. والثانية: من ناحية المُدرَك، أي القضايا التي يُمكن للعقل أن يَستقلَّ بإدراكها. ففي الأولى يضع بين يدي العقل بعضَ القوانين العامة التي إذا تحرَّكَ في ضوئها يكونُ

1 - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج6، ص252.

أقربَ إلى إدراك الحقّ. وفي الناحية الثانية يُساند العقلَ ويُؤيِّده في إدراكه، ويقول له: أحسنت، إنَّ ما أدركتَه صحيح، فيَشعر العقلُ بالتأييد والمُؤازرة والمُساندة، فيَثِقُ في حقانيّة مضمون هذه القضية أو تلك التي وقف الوحي إلى جانبه فيها.

وبعبارة أخرى، لا شكَّ في أنّ العقل البشري قادرٌ بنحو مستقلٍّ على إدراك كثير من القضايا، من دون الاستعانة بأيِّ مصدر خارجي كالوحي الإلهيّ. ويمكن تصنيف هذه القضايا إلى:

1 - قضايا إيجابيّة: أي يُدرِك العقل فيها ثُبوتَ المَحمول للموضوع، مثل: خالق الكون موجود، أو الماء يغلي عند درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر... إلخ.

2 - قضايا سلبية: أي أنّ العقل يُدرِكُ من تلقاء نفسه سلبَ المَحمول عن الموضوع، مثل: الله ليس له شريك في ذاته، الحديد ليس من السوائل... إلخ.

3 - قضايا تجويزية: أي أن العقل يُدرِك جوازَ شيء دون الحكم عليه سلبًا أو إيجابًا، مثل: يُمكِن أن يكون هناك كائنات حيّة على كواكب أخرى في هذا الكون.

وإن الخطأ لا يُمكِن أن يكونَ من جهة العقل المُكوِّن؛ لكونه معصومًا في إدراكاته، أي أن العقل المكوِّن لا مجال لِيُخطِئَ، ولكن نحن كبشر لا نتعامل مع العقول المُكوِّنة بصورة مُجرَّدة عن مؤثّرات البيئة والتربية والمكتسبات الثقافية و...، ولذا يحتاج العقل المكوَّن إلى من يرشده لتصحيح معطياته الإدراكيّة. ففي هذه الأنواع الثلاثة من القضايا يحتاج العقل إلى الوحي:

■ أمّا في النوع الأوّل، فيحتاج إليها في تقديم تصوُّر واضح عن الموضوع أو المحمول، فإنَّ الذِّهنَ البشري وتحت ضغط عوامل كثيرة قد يتصوَّر الخالق بصورة خاطئة، فيأتي الوحيُ لِيُصحِّحَ تلك الصورة عن الخالق.

■ وفي القضايا الثانية قد تَعتقِدُ بعضُ العقول بأنّ لله شريكًا، بل بعض العقول قد استعجبَت من جعل الآلهة إلهًا واحدًا كما ينقل القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: 5]، ولذا قال النبي يوسف عليه السلام: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [يوسف: 39].

■ وفي القضايا الثالثة، تكون وظيفة الوحي رَفْدَ العقل بالمعطيات الوحيانية التي تُخرِجُ

القضيةَ من حدِّ التَّجويز إلى حدِّ الوجوب أو الامتناع مثلاً.

وإجمال ذلك يمكن استفادته من قول (المحقّق الطوسيّ): «البَعثةُ حسنةٌ لاشتمالها على فوائد: أولاً: مُعاضدة العقل فيما يدلُّ عليه. ثانيًا: استفادة الحُكم فيما لا يدلُّ عليه...»[1].

أ - من الأمثلة على القضايا التجويزية

يقول (ابن سينا): «يجبُ أن يُعلَم أنَّ المَعادَ منه ما هو مَنقول من الشرع، ولا سبيل إلى إثباته إلا عن طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة، وهو الذي للبدن عند البعث... ومنه ما هو مُدركٌ بالعقل والقياس البُرهاني، وقد صدَّقتْه النبوّةُ، وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالقياس اللَّتان للأنفس...»[2].

ويقول (المحقّق الطوسي) في «تجريد الاعتقاد»: «.. وعذابُ القبرِ واقعٌ لإمكانه، وتواترَ السَّماعُ بوقوعه. وسائر السَّمعيات من الميزان والصراط والحساب وتطايُر الكتب مُمكنة، دلَّ السَّماعُ على ثُبوتها، فيجب التَّصديقُ بها.»[3].

ويقول (حسن زاده آملي): «.. البحث عن تكامل النفوس بعد انقطاعها عن هذه النشأة في برازخها... إنمَّا كان من قِبَل الشَّرائع الإلهية، وإلّا فالعَقلُ وحدَه لا يَحكُم بذلك، وبعدما نطق به الشَّرعُ تصدَّى العقل لإقامة البُرهان عليه وتعرَّض بوجدان السبيل إلى دليله.»[4].

وهكذا عشرات القضايا التي لم يكن العقل يتمكَّن من إدراكها على مستوى الجزئيّاتِ أو الكُلِّيّات لولا الكَشف الوحياني.

أمّا الحاجة إلى الوحي في تحديد الأفعال التي تُوصِل الإنسانَ إلى كماله النفسيِّ وسعادته، لعجز العقل عن إدراك الرَّوابط القائمة بين الفِعل والكَمال، بمعنى عدم قدرته على إدراك مَلاكات الأحكام من مصالح ومفاسد واقعيّة، يقول (السيد أبو القاسم الخوئي) في بيان سبب ذلك أن "العقل لا يُحيط بالمصالح الواقعية والمفاسد، [بسبب تأثُّره بالنفس] والجهات المُزاحمة لها،

1 - العلامة الحلي: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص468.

2 - ابن سينا: الشفاء - الإلهيات، ص423.

3 - العلامة الحلي: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص424.

4 - حسن زاده آملي: سرح العيون، ص821.

ولذا ورد في الروايات: ‘إنَّ دينَ اللهِ لا يُصابُ بالعُقولِ’[1]»[2].

فالإنسان بحاجة إلى الوحي ليكشف له عن القوانين والتشريعات التي يُنظِّم حياته في ضوئها من أجل تحقيق الخير والسعادة.

تاسعًا: الحاجة إلى الدِّين في المعيار الأخلاقي الذي يضبط السلوك الإنساني

من النقاط المُهمّة، في حاجة الإنسان إلى الدِّين، حضور المعيار الأخلاقيّ؛ إذ لولا الدِّين الحقُّ، يغيب الميزان الذي يتمكَّن الإنسان بواسطته من قياس الخير والشرِّ والحَسَن والقبيح.

يقول الملحد الفرنسي (جان بول سارتر - Jean-Paul Sartre): «لقد كتب (دوستويفسكي): ‘لو لم يكنِ اللهُ مَوجودًا، لكان كلُّ شيءٍ مَسموحًا به.’. هذه هي نقطة البداية للوجودية. في الواقع، كلّ شيء مباح إذا لم يكن الله موجودًا.»[3]. ويقول الملحد (ريتشارد دوكنز): «في هذا العالم لا يُوجد شرٌّ ولا يُوجَد خيرٌ، لا يوجد سوى لامبالاة عمياء وعديمة الرحمة.»[4].

«اللادين» يفترض غياب الضابط الأخلاقي للحياة الإنسانيّة؛ ونقصد بالضابط الأخلاقي الواقعيّ الذي يشكّل المرجعية العليا التي تحرِّك الإنسانَ وتغرس في داخله الدافعَ للمسؤولية والالتزام، وهذان العنصران لا يتوفَّران إلا بواسطة الوحي الدِّيني القائم على عقيدة القيامة والإيمان باليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب، فالإنسانوية وإنْ أقرَّت بالضابط الأخلاقي، لكنه قائم على أساس «إجماع أفراد مجتمع مُعينَّ» أو «المنفعة الشخصيّة» أو غيرها من المعايير التي تُعطِّل أيَّ فاعليّة نحو الالتزام الأخلاقي من خلال أنسنتها بنحو تكون مُتغيِّرةً ونسبية...

وإضافةً إلى التَّصريحات النظريّة التي تقدَّمت نُعطي بعضَ النماذج التطبيقيّة على ذلك:

أ. المُلحد الأسترالي (بيتر سنجر - Peter Singer): يرى أنّ ممارسة البشر الجنسَ مع

---

1 - الرواية واردة عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام). انظر: الصدوق: كمال الدِّين وتمام النعمة، ص324.

2 - البهسودي: مصباح الأصول، ج2، ص26.

3 - سارتر: الوجودية مذهب إنسانيّ، ص.ص.24-35.

4 - Liam, The Dawkins Delusion, Vol.2 p94.

الحيوانات والبهائم، طالما لا تتضمَّن أذيّة من أيِّ نوع للحيوان، هو أمر طبيعي ومقبول، ويقول: «لا خطأ في ذلك على الإطلاق، بل إنه أمرٌ محمود، طالما يُؤدِّي إلى استمتاع الطرفين: الحيوان والإنسان.»[1].

ب. الفيزيائي المُلحد (لورنس كراوس - Lawrence M. Krauss)، سُئل: هل يُعتبرَ زِنى المحارم خطأً؟ فأجاب: «ليس من الواضح بالنسبة إليَّ أنه خطأ، إنّ أغلب المجتمعات يمَنعونه من باب تجريبيٍّ بشكل عام، فإنَّه يُنتج مضارَّ وراثيّة...، لكن إذا سألتني سؤالاً أو طلبتَ منّي دليلاً عقليًّا بخصوص أخ وأخت يُحبّان بعضهما ويهتمّان ببعضهما، مع استعمال موانع الحمل، فهل يوجد شيء خاطئ أخلاقيًّا في هذا؟ لا أعتقد وجود أي مشكلة أو أي إدانة في هذا إذا أحبّا بعضهما.»[2].

ج. فلنتصوَّر المجتمعات الإنسانيّة بلا دين، أي شكل ستكون عليه يا ترى؟ اللادين يَقود إلى الانحطاط الأخلاقي للمجتمعات الإنسانيّة، لأنّ الدِّين يُشكِّل المرجعية الأخلاقية والمعيار القيَميَّ الأعلى الذي تُبنى الحياةُ الإنسانيّة السَّويّة في ضوئه.

عاشرًا: الحاجة إلى الدِّين والشعور بالأمان النفسي

تقدَّم قولُ عالم النفس التحليليّ (كارل يونج - Carl Jung): «انعدامُ الشّعور الدِّيني يُسبِّب كثيراً من مشاعر القلق والخوف من المستقبل والشّعور بعدم الأمان والنّزوع نحو النَّزعات الماديّة البحتة، كما يؤدِّي إلى فقدان الشُّعور بمعنى ومغزى هذه الحياة، ويُؤدِّي ذلك إلى الشّعور بالضَّياع.»[3]؛ إنَّ الشُّعور باللاهدفيّة واللامعنائيّة في الحياة يمَنح الإنسانَ إحساسًا بالقلق والكآبة والتشاؤم، نتيجة النَّزعة العَدَميّة، والدِّين يُقدِّم تصوُّرًا يقوم على أساس الهدف، وقد اتَّضحت هذه الفكرة فيما سبق، ونُضيف أنّ الإنسان يَعيش في هذا الكون الفسيح، فيشعر بالوحشة والغربة

1 - https://www.aljazeera.net/midan/intellect/philosophy/201719/9/

2 - لورنس كراوس: زنى المحارم ليس خطأ واضحًا، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=M69XV35sCdk

3 - نقلاً عن: عبد الرحمن محمد العيسوي: دراسات في تفسير السّلوك الإنساني، ص193.

والوحدة، من جهة، ومن جهة ثانيّة يمرُّ بمحطات كثيرة بحياته، تتقطَّع به الأسبابُ ولا يجد ملجًا وسندًا ودعمًا.

أمام هاتين الحالتين يجد الإنسانُ في اللّه -سبحانه وتعالى- أمانَهُ وطمأنينتَه؛ ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ [الرّعد:28]، ويوسف ﷺ، ذلك الطِّفل الذي كان في التاسعة من عمره، حين ألقاه إخوتُه في غيابةِ الجُبّ، والتقطه بعضُ السيّارة، وأُخرج ﷺ من البئر، قال لهم قائل: استَوصُوا بهذا الغريب خيرًا، فقال لهم يوسف: «مَن كانَ معَ الله فلَيسَ عَلَيهِ غُربةٌ»[1].

وعن الإمام الحسن العسكريّ ﷺ: «اللّه هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّدائد كلُّ مخلوقٍ، عند انقطاع الرَّجاء من كلّ مَنْ دونه، وتَقطُّعِ الأسباب من جميع مَن سواه.»[2].

الدِّين الحقُّ يُعطي للحياة تفسيراً يجعل الإنسانَ يَشعُرُ بالمَعِيّة الإلهيّة ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ [الحديد: 4]، فيَعيش حالةَ السَّكينة والطمأنينة، وترتفع عنه مشاعر الحزن والخوف والقلق والكآبة والتشاؤم والهلع... وهذا واضح في المنطق القرآني: ﴿ **لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى** ﴾ [طه، الآية: 46]، ﴿**وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد: 35]، ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنّ اللَّه مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّه سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**﴾ [التوبة: 40]، ﴿**فَلَمّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلّا إِنّ مَعِيَ رَبّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: 61-62].

المُلحد نفسُه عندما تتقطَّع به الأسبابُ الماديّة التي كان يتوسَّل بها لا يَملك إلا أن يتحرَّك نحو الله -تعالى-، لِيُخلِّصَه ويُشعِرَه بالأمان النفسيِّ، كحال ذلك الرَّجل الذي قصد الإمامَ جعفرًا الصّادقَ ﷺ وقال له: «دُلَّني على اللّه ما هو؟ فقد أكثر عَليَّ المجادلون وحيَّروني.

فقال له: يا عبد اللّه، هل ركبتَ سفينةً قطُّ؟

قال: نعم.

قال: فهل كُسِرت بكَ حيث لا سفينةَ تُنجيكَ، ولا سباحة تُغنيك؟

---

1 - الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج3، ص5.

2 - الصّدوق: التوحيد، ص231.

قال: نعم.

قال: فهل تعلَّق قلبُك هنالك أنّ شيئًا من الأشياء قادرٌ على أن يُخلِّصَك من ورطتِكَ؟

قال: نعم.

قال الصّادق عليه السّلام: فذلك الشّيء هو اللّه، القادر على الإنجاء حيث لا مُنجيَ، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث"[1].

ويُشير الله -تعالى- إلى هذه الحالة النفسيّة للإنسان في آيات عدّة، منها: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾ [يونس:12]، ﴿**فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ**﴾ [العنكبوت: 65].

خاتمة

إنَّ الإنسان موجودٌ مُكوَّن من بُعدين: ماديٍّ وروحيٍّ، وكلُّ بُعدٍ منهما له حاجاته الخاصّة، وهذه الحاجات أمورٌ فِطريّةٌ مجبولة في داخل كلِّ إنسان، وليست أمورًا مُكتسَبةً بالإمكان الاستغناء عنها، والامتناع عن تلبية أيِّ حاجة -هي على مُقتضى نداءِ التَّكوين الذاتيِّ للإنسان- يُؤدِّي إلى الوقوع تحتَ ضغط الشُّعور بالحرمان والألم والاضطراب و...، فكما أنَّ الإنسانَ يَحتاج إلى الطعام أو الشراب أو النَّوم، وإن لم يُلَبِّ هذه الحاجة أو تلك يقع تحت تأثير التَّوتُّر، فإنّه في خطِّ علاقته مع حاجاته الرُّوحيّة يعيش الحالةَ ذاتَها، ولا يُمكِنُ التَّعويضُ عن الحاجات وترحيل ندائها من حاجة إلى تلبية نداء حاجة أخرى، فلا يُمكن للإنسان أن يَستعيض بالنَّوم لِيُلبِّي حاجتَه إلى الطعام أو الشراب، وكذلك مهما استغرق الإنسان في تلبية حاجاته الماديّة، جمعًا للمال، وتحقيقًا للشهرة و... فإنَّه لن يتمكَّن من إسكات صوت هتاف الشُّعور الدِّينيِّ بضرورة تلبية ندائه، وإلّا فإنّه سيشعر بالاضطراب والكآبة والحَيرة والقلق، ولعلَّه دون أن يُدرِكَ أنَّ الدافع الكامِنَ خلفَ هذه الحالات النفسيّة هو حرمان ذاته ممّا تطلبه، وكلُّ إنكار لهذه الحاجة في الفكر

1 - الصّدوق: معاني الأخبار، ص5.

أو اللفظ أو العمل لن يتمكَّن من قَتْلها، لأنَّها واقعيّة ذاتيّة لا تخضع للاعتقاد بوجودها أو عدمه، وليست أسيرة للإقرار بها أو لا، بل هي حاضرة في ذات الإنسان شاءَ أم أبى، فليس أمامَه إذنْ من حلٍّ لأزمته المعاصرة في الشعور بالاضطراب والقلق والكآبة إلّا بالسعي لتأمين حاجته إلى الدِّين الحقِّ والإيمان بالله تعالى، وتَسخير ما ملَّكه اللهُ تعالى من أدوات ووسائل في خدمة هذا الهدف الوُجودي الذي خُلِق لأجله، ومنها العقل والعلم والإرادة والحريّة والاختيار، وكذلك ما سخَّرَه الله تعالى له وجعله تحت سلطانه وخلافته.

فهناك قمّةُ التكامل بين الإيمان بالله -تعالى- وإنسانيّة الإنسان، دون أدنى تناقُض بين الإيمان بمحوريّة الله -تعالى- في الكون وبين شعور الإنسان بأنَّه في موقع مُتميِّز في هذا الكون، بل في مركزه، حيث انطوى في هذا الإنسانُ العالَم الأكبر، في ضوء المحوريّة التي منحه الله -تعالى- إياها في تكريمه وتفضيله، واختياره لخلافته، وتحميله الأمانة، واستعماره في الأرض، وخلقه في أحسن تقويم...

لائحة المصادر والمراجع

باللغة العربية

1. القرآن الكريم.

2. أبو علي سينا، الشفاء - الإلهيات، راجعه وقدم له: الدكتور إبراهيم مدكور، تحقيق الأستاذين: الأب قنواتي وسعيد زايد، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1404هـ.

3. البهسودي، محمد سرور، مصباح الأصول، تقرير بحث السيد أبي القاسم الخوئي، مكتبة الداوري، قم، ط5، 1417هـ.

4. جوادي آملي، عبد الله، إمكان معرفة الإنسان وأهميّتها، منشور ضمن كتاب: الدِّين والإنسان، العتبة العباسيّة المقدسة- المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، النجف الأشرف، ط2، 2024م.

5. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح – تاج اللغة وصحاح العربيّة-، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ - 1987م.

6. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت ، ط1، 1431هـ – 2010م.

7. رسل، برتراند، لماذا لست مسيحيًّا؟ ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين، دمشق- بيروت، ط1، 2015م.

8. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1414هـ – 1994م.

9. الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1412هـ.

10. الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

11. الصدر، محمد باقر، الأسس المنطقية للاستقراء، دار التعارف، بيروت، ط5، 1986م.

12. الصّدوق، محمد بن علي، التوحيد، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1427هـ - 2006م.

13. الصدوق، محمد بن علي، كمال الدِّين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1405هـ.

14. الصّدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، تعليق علي أكبر الغفاري، تقديم حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م.

15. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1372هـ.ش.

16. الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، تصحيح وتعليق الشيخ عباس علي الزارعي السبزواري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط14، 1417هـ.

17. طلعت، هيثم، العودة إلى الإيمان، مركز براهين للأبحاث والدراسات، ط2، 2016م.

18. عجمي، سامر توفيق، الإلحاد المعاصر على طاولة التشريح، مركز براثا للدراسات والبحوث، بيروت-بغداد، ط1، 1445هـ - 2024م.

19. ـــــــــــــــــــــــ، التربية بنظرة فلسفيّة، مركز الأبحاث والدراسات التربويّة، دار البلاغة، بيروت، ط1، 1439هـ - 2018م.

20. العلامة الحلي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق آية الله حسن زاده الآملي، قم، مؤسسة نشر الإسلامي،ط7، 1417هـ.

21. العيسوي، عبد الرحمن محمد، دراسات في تفسير السلوك الإنساني، دار راتب الجامعية، بيروت، 1419هـ.

22. الغروي، علي، التنقيح في شرح العروة الوثقى، تقريرًا لأبحاث أبي القاسم الخوئي، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، (لا،ط)، 1418 هـ - 1998م.

23. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت.

24. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط2، 1403هـ - 1983م.

25. مطهري، مرتضى، الدوافع نحو المادية، ترجمة محمد علي التسخيري، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط2، 1980م.

26. النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، دار المرتضى، بيروت، 1431هـ - 2010م.

باللغة الأجنبية

1- Renan, Ernest, L'avenir de la science, pensées DE 1848, Paris, Calman Levy, Éditeur, xx.